أحاديث ظاهرها التعارض

* حديث الحكم بن عمرو: «نهى رسول الله ﷺ أن تغتسل المرأة بفضل الرجل، أو الرجل بفضل المرأة، وليغترفا جميعاً» رواه أبو داود والنسائي.

وعارضه حديث ابن عباس «أن النبي ﷺ كان يغتسل بفضل ميمونة» رواه مسلم.

والجمع بينهما أن يحمل حديث الحكم على كراهية ذلك لغير حاجة، وحديث ابن عباس جوازه للحاجة.

* وحديث أبي سعيد: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم» متفق عليه.

وعارضه حديث سمرة بن جندب: «من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت، ومن اغتسل فالغسل أفضل» رواه الخمسة

ويقدم حديث أبي سعيد لأنه أصح وأصرح، فغسل الجمعة واجب.

* حديث جابر: (أن أعرابيا سأل النبي ﷺ عن العمرة أواجبة هي؟ قال: «لا، وأن تعتمر خير لك» رواه أحمد والترمذي.

عارضه حديث أبي رزين العقيلي: «حج عن أبيك واعتمر».

ويقدم حديث أبي رزين لأنه أصح من حديث جابر.

* حديث أبي قتادة: (لما أهدي للرسول ﷺ حمار وحشي وهو محرم فقبله) متفق عليه.

وعارضه في الظاهر حديث الصعب بن جثامة: «لما رد النبي ﷺ

حماره الوحشي، وقال «إنَّا لم نرده عليك إلا أنَّا حرم» متفق عليه،

فيقال: حديث أبي قتادة لم يصد لأجله ﷺ، وحديث الصعب صيد لأجله..

* حديث عثمان: «لا ينكح المحرم ولا ينكح» رواه مسلم.

عارضه حديث ابن عباس «أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم». متفق عليه.

يقدم حديث عثمان لأن حديث ابن عباس وهم، وعند مسلم عن ميمونة نفسها «أن رسول الله ﷺ تزوجها وهي حلال».

* حديث ابن عباس أن النبي ﷺ «رد ابنته على أبي العاص بن الربيع بعد ست سنين بالنكاح الأول ولم يحدث نكاحاً» رواه أهل السنن إلا النسائي.

عارضه حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن النبي ﷺ ردها بنكاح جديد». رواه الترمذي.

والمقدم حديث ابن عباس لأنه أصح وعليه العمل.

* حديث حكيم بن حزام: (لا تبع ما ليس عندك). وحديث ابن عباس «أن الرسول ﷺ رخص في السلم».

فيقال: إنما أجيز السلم وهو بيع ما ليس عنده لأنه في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم.

* حديث طلق بن علي في مس الفرج: «إنما هو بضعة منك» رواه الخمسة.

وحديث بسرة بنت صفوان: «من مس ذكره فليتوضأ» رواه الخمسة.

obeikandl.com

ويجمع بينهما أن حديث طلق في المس العام الذي لا يحرك الشهوة، وحديث بسرة في المس الخاص الذي تتحرك به الشهوة.

* حديث أبي سعيد: «الماء من الماء» رواه مسلم، وحديث أبي هريرة: «إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل».

فيقال: حديث أبي سعيد في الاحتلام، وحديث أبي هريرة في الجماع.

* حديث أبي بكرة: (أنه ركع قبل أن يصل إلى الصف ولم يأمره ﷺ بالإعادة) رواه البخاري.

وحديث وابصة بن معبد (أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

فيقال: حديث وابصة فيه النهي عن أداء الصلاة وحده منفرداً وحديث أبي بكرة إنما أقرّه على تلك الصلاة لأنه عقد الصلاة وحده وهو في طريقه إلى الصف ثم قال له: ولا تَعد.

* حديث ابن عباس: (أنه ﷺ احتجم وهو محرم، واحتجم وهو صائم) رواه البخاري، وحديث شدّاد بن أوس: «أفطر الحاجم والمحجوم» رواه الخمسة إلا الترمذي.

فالعمل على حديث شدّاد لأن حديث ابن عباس وهمٌ كما ذكر ذلك أحمد ويحيى بن سعيد الأنصاري، والصحيح احتجم ﷺ وهو محرم وليس فيه وهو صائم.

* حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ (نهى عن بيع الحيوان بالحيوان

نسيئة) رواه الخمسة.

وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص: (أنه كان يأخذ البعير بالبعيرين إلى إبل الصدقة بأمر رسول الله ﷺ) رواه الحاكم والبيهقي

يقدم حديث ابن عمرو لضعف حديث سمرة، وبعضهم قال: معنى حديث سمرة: لا يباع حيوان غَائب بغائب، وهو بيع الكالىء بالكالىء، وعلى هذا فلا تعارض.

* حديث معاذ بن أنس أن النبي ﷺ (نهى عن الحبوة يوم الجمعة والإمام يخطب) رواه أبو داود والترمذي، وقالا: حديث حسن..

وحديث شداد بن أوس: (رأيت أصحاب رسول الله في بيت المقدس يوم الجمعة محتبين).

يقدم حديث معاذ لأنه أصح وأصرح ولأنه قول.

* حديث أبي موسى في الصحيح قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان» (وشبك بين أصابعه) وحديث كعب بن عجرة في السنن: (إن الرسول ﷺ نهى أن يشبك الرجل بين أصابعه إذا أتى المسجد).

فهنا يحمل حديث أبي موسى إلى أن هذا وقع بعد الصلاة أوأنه لحاجة التعليم جائز، ولغير الحاجة ممنوع..

* حديث أنس في الصحيح: (أن فخذ النبي ﷺ تكشفت يوم خيبر) وحديث جرهد مرفوعا: (غط فخذك فإن الفخذ عورة).

يحمل حديث أنس على أنه وقع من الرسول عن غير قصد.

وقال البخاري: حديث أنس أسند، وحديث جرهد أحوط.

* حديث عائشة عند مسلم: (ماذا أقول يا رسول الله إذا زرت المقابر، فعلمها ﷺ الدعاء)، وحديث أبي هريرة عند الترمذي: (لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور).

فحديث عائشة لمن زارها اتفاقا لا قصداً، وحديث أبي هريرة من قصد ذلك وتعمده.

* حديث ابن عباس: (سقيت النبي ﷺ من زمزم، فشرب وهو قائم) متفق عليه. وحديث أنس: (نهى النبي ﷺ أن يشرب الرجل قائما)، رواه مسلم.

فيقال: حديث أنس النهي في طلب الأكمل والأحسن، وقيل: يجوز واقفا للحاجة كزحام، كما عند زمزم ونحوه، ويكره لغير حاجة.

* حديث عائشة في الصحيح: (كان رسول الله ﷺ يصلي الفجر بغلس)، وحديث رافع بن خديج مرفوعا: «أصبحوا بالصبح، فإنه أعظم لأجوركم» رواه الخمسة.

فقيل: حديث عائشة يدل على أنه صلاها في أول الوقت، وحديث رافع يدل على الانتظار بها حتى يطلع الفجر. وقيل: يطيل القراءة حتى يسفر.

مع الكُتَّاب

ما قرأت لأحد من المتقدمين والمتأخرين أجمل بياناً وأندى لفظاً، وأعمق معنى من الجاحظ، إنه نادرة الزمان في صياغة الحرف،

obeikandl.com

وأعجوبة الدهر في نسج الكلام، غير أنه رقيق دين صاحب مضادات وأوهام وشكوك، أما أحمد حسن الزيات من المتأخرين فكتاباته ندية باهرة خلابة، وما أروع تقابل الفواصل، واستقلال المقاطع، واختيار الجمل.

وأما طه حسين فسلس العبارة، مستطرد النفس، حالم الخيال، لكن الرجل صريع الشبهات.

أما العقاد فله من اسمه في أسلوبه نصيب، وكأن كلامه شعر الفرزدق قوة في جفاف، وعمق في يبس.

وأما الرافعي فغاية في طول النفس، وربما أغرب، وهو أمة وحده في هذا الفن.

وأما سيد قطب فبديع الإنشاء، لكنه مسهب مكرر يعيد الجمل كثيراً.

وأما الطنطاوي فله سحر الحلال يدهش العقول، وهو قادر على استنزاف دمع العين، وحزن القلب بما يكتب، وهو عندي منقاد الخاطر، طلق البديهة، متدفق القلم.

وأما محمد الغزالي المعاصر فله قاموس خاص، فيه جلال وهيبة، وهو يجبر الذهن على التلفت، وإنه لحسن الإيقاع، رخيم العبارة.

وأبو الحسن الندوي له مدار في العبارات لا يتعداها مع اهتمام بالتفخيم والتضخيم والتهويل، مع مسحة من الروحانية الزاكية.

obeikandl.com

سنة

لابد للعلماء والشعراء والمؤلفات المتميزة من مضادة ومنادة حتى تشتهر وتذاع وتعرف، كما قال المتنبىء:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وهذه سنة، وانظر في أحوال علماء الأمة وشعرائها الكبار ومؤلفاتهم المؤثرة، أما العادي فهو أقل من أن يصادم.

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستشهدون وهم شهود

لقد كان أبو بكر الصديق يدعى باسمه مجرداً بسيطاً سهلاً، وكذلك عمر وعثمان وعلي وسعد وغيرهم، فهل نقص قدرهم لنقص الألقاب، أم خف وزنهم لحذف الأوصاف، لا وربي، فهم في العيون والقلوب وبطون الكتب وعلى رؤوس المنابر وفي حلبات المجامع. فالحذر من الإسراف المتهالك على أوسمة الألفاظ، والإخفاق في عالم الذات، فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

خاطرة

لا يتذكر الموت أحد في الغالب إلا إذا خلا بنفسه وابتعد عن الناس وصخبهم وكلامهم، فصار وحده، فاستجمع فكره، وتدبر أمره وتهيأ لميعاده، أما وهو يكلم هذا، ويجلس مع هذا، ويزور ذاك، فأنى له التفكر في الرحيل من هذه الدنيا.

فائدة

قد يكون المربي والواعظ أعظم وأنفع من المفتي، فإن المفتي نفعه عند نزول نازلة، وحدوث مسألة، لكن المربي دائماً مع الناس، يزجرهم عن المعاصي، ويحثهم على الطاعة، ويدعوهم إلى الفضائل، ويلهب مشاعرهم بوعظه، ويستثير هممهم بكلامه خاصة إذا أوتي تأثيراً وبلاغة، وقد رأيت مربين في سيرهم ووعاظاً فاقوا كثيراً من الفقهاء المفتين، ونفع الله بكلامهم وإشاراتهم ووعظهم كابن الجوزي والجيلاني والغزالي وأبي معاذ الرازي وغيرهم.

وقفات

لا تخدع بمالك فما لجلج قارون في الأرض إلا ماله، ولا تغتر بحالك فما قتل الحلاج إلا حاله، ولا تركن إلى المنصب فنصب المنصب أنصب فرعون، وأشرف أبو جهل بالشرف على الهاوية، والتهب أبو لهب بنار الزعامة، وما ضر بلالاً لونه الأسود لأن قلبه أبيض، وما أخر سلمان نسبه الأعجمي لأنه تبع النبي العربي، وما قعد بابن مسعود فقره لأن غناه في قلبه، وما نقص أبو ذر من البر ذرة، لأن وزن الجبال من اليقين في قلبه، سبحان من إذا ذكرته ذكرك، وإن شكرته زادك، إن توكلت عليه كفاك، إن فوضت إليه وقاك، إن سألته أعطاك، إن افتقرت إليه أغناك، انكسار القلب بين يدي الرب خير من ملك كسرى، وقصر الظهر ساجدا له أروع من سلطان قيصر، لو عمرت

قلبك باليقين ما أعجبتك قصور السلاطين، إذا أراد الله هلاك نملة ريشها، وإذا قدر موت دودة أنعشها، الماعز حتفها في ظلفها، والثعبان حياته في سمه، سلم للمقدور بالحذر، واترك المحذور ولا تعتذر بالقدر، القدر للمصائب لا للمعائب، فلا تكن جبري المعصية، قدري الطاعة، خارجياً مع الناس، مرجئاً مع النفس، معطل الصداقة مع إخوانك، ولكنك غال في حقوقك على أقرانك، ناصب نفسك العدا، وارفض المدح فهو للنفس ردى، أرسل خالد إيمانك على جعد شيطانك بسكين التوحيد، ومزق شهواتك فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها، وناد في أعمالك الصالحة ضحوا تقبل الله أضحيتكم، أنت حنبلي المحنة مع الدنيا، سني الشعائر في المنهج، فما لابن أبي دؤاد البدعة يناديك من مكان قريب، وما لجهم الانحراف يقول هل من مجيب.

تتبع العثرات

من أشأم خصال الرجل تتبع العثرات والفرح بالزلات وتصيد الأخطاء وهذه من علامات سوء الطوية وضعف العقل، ومن نصح نفسه أشغلته عيوبه عن عيوب الناس ثم إن استعداء الناس من أشق الأمور على الإنسان فإنه يعكر عليه حياته ويضيع عليه دينه وتجد عند من يشتغل بالردود على الناس وتتبع غلطاتهم من حاسية النقد وحب التشفي ما يصل إلى درجة الغليان فتصبح غدده مليئة بالسم لا يرتاح حتى يفرغها، فعليك بالبناء ونفع الناس ودع النقد الضار والاشتغال بالعيوب فإن الذباب لا يقع إلا على الجرح، والعبد بحاجة إلى أصدقاء

يدعون له لا أعداء يدعون عليه ويبغضونه فعليك نفسك فتش عن عيوبها واتهمها وحاكمها وفي هذا شغل شاغل عن عيوب الناس. ولكن بعضهم أهمل نفسه بل زكاها ومدحها وذب عنها وهو مليء بالعيوب ثم انصرف إلى إخوانه المسلمين فأكل لحومهم ونشر عيوبهم وفرح بهفواتهم واهتم بالرد عليهم وهذا من الخذلان وقلة التقوى وذهاب الورع ولما كان الجزاء من جنس العمل قيّض الله لهؤلاء من كشف عوارهم ونشر عيوبهم ورد عليهم. وبالمقابل من ستر مسلماً ستره الله ومن ذب عن عرض مؤمن قيض الله من يذب عن عرضه جزاءً وفاقاً.

خاطرة

لو ملكت كنوز الدنيا وأنت لا تملك الإيمان والعمل الصالح، فاعلم أنك في شقاء، كان في عصرنا تاجر كبير، يعرفه غالب الناس بثرائه الفاحش، وكان معرضاً عن الله عز وجل، لاهياً غافلاً لعَّابا، أصيب بسرطان في دماغه فما ترك طبيباً حتى استشاره، وصرف أموالاً طائلة في العلاج، وما ترك وسيلة للدواء إلا سعى فيها، ولكن هيهات فقد قضى نحبه، وفارق الدنيا بلا عمل ولا مال ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

لا تطمئن إلى الدنيا

كم من الفواجع والمصائب عشناها ورأيناها ثم نسيناها، كان لي أخ شقيق طلب العلم إلى أن وصل الجامعة فأصابه مرض عضال،

فبترت يده اليسرى ثم لحق بربه بعد أشهر ـ غفر الله له ـ، وكنت أظن أني لا أسلو بعده بالحياة، ثم نسينا!! وأعرف صديقاً لي من قبيلتي كان في مكتمل القوة والصحة، أصابه مرض خطير مفاجىء أقعده، ثم لحق بربه وخلف أهله وأسرته وبكوه، ثم اشتغلوا بالحياة، وكان لنا صديق في الجيش برتبة عالية أصيب فجأة بجلطة، فصارت الدنيا في عينيه سوداء، وضاقت به الأرض بما رحبت، ولي صديق محب طالب علم له ابن بلغ السادسة عشرة خرج فجأة فصدم بسيارته وفارق الحياة، فوقع المصاب في سويداء القلب، ثم سلا أهله.

وكم رأينا وكم عرفنا وكم سمعنا من المصائب والكوارث والأحداث ولا نجاة:

ومن كلمت فيه النهى لا يسره نعيم ولا يرتاع للحدثان

في عصر الكمبيوتر

ما عاد لطالب العلم الذكي نشاط في التأليف مع عصر الكمبيوتر، فتكالب الناس عليه وتركوا الكتاب، وهو في تطور دائم، مع سهولة الاستعمال، ودقة الضبط، وتوفير الوقت، وقد ترك هذا الجيل كتب الجهابذة وأعرضوا عنها، فكيف بكتبنا نحن؟!.

مَثَل

هناك مثل عند الألمان يقول: السعيد من ينسى ما لا سبيل إلى تغييره. فالشيء الذي وقع وانتهى ليس هناك أجمل من تناسيه وطرحه

من الذهن، وعدم ذكره والتحدث عنه، فهذه هي السعادة، ورباطة الجأش.

القواعد الكونية والشرعية في المحن والمصائب

القاعدة الأولى: سنة التغيير والانتقال وتبدل الحال: وذلك أن الله قدر وجود الضدين، فإذ وصل الضد إلى حده انقلب إلى ضده، فالليل إذا أخذ مقداره، وأنهى مشواره عقبه الفجر، سنة ماضية، وقاعدة دائمة ثابتة، والنهار إذا قضى وقته المحدود، وعمره المعدود دهمه الليل واستولى عليه، لأن لكل منهما أجلاً مسمى، وهذا عام في الساعات والأيام والشهور والأعوام، وفصول السنة، ومواقيت الثمار، والحصاد، والحمل، والصحة، والمرض، والملك، والغنى والفقر، والعسر واليسر، والسرور والحزن، والاجتماع والفرقة، والحب والبغض، والعزة والذلة، والكثرة والقلة، والنصر والهزيمة، والظفر والإخفاق، وغير ذلك من الصفات والأحوال، لأن هذا ما أراده الله لهذه الدار وما كتبه على أهلها من التقلب في الأطوار على طيلة الأعمار.

فمن هذه السنة الماضية، والحكمة القاضية نستفيد نتيجة عدم دوام الشدة وأنها سريعة الزوال، وأنه لابد من تغيرها إلى الرخاء، وعسرها إلى يسر، لأنه لو لم يحدث ذلك لكان في هذا نقص لحبل التقدير، ومعاكسة لسنة اللطيف الخبير، وهذا لا يمكن أن يحصل أبداً، ولا يقع هذا مطلقاً، لأن سنة الله لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلا. ولولا أني التزمت في هذه السنن أن لا أذكر أثراً ولا دليلاً من الكتاب

والسنة وكلام الحكماء والأدباء والشعراء لبرهنت على صحة هذه السنة، ولكن خوف الإطالة والإثقال، ولأن من بحث عن هذه الأدلة وجدها وحصلها فلا معنى للإكثار من نقلها هنا.

القاعدة الثانية: أن الشدائد تبدأ كبيرة ثم تصغر، وأن هولها لا يستمر مع عمرها، بل لها صدمة مفجعة، موجعة في أولها، ثم تبدأ بالضمور والاضمحلال والانحسار كالجرح ينفجر ثم يبدأ في الالتئام حتى يبرأ، فما على العبد إلا الصبر عند الصدمة الأولى، فعندها يكون الاحتساب والأجر، أما ما سوى ذلك فإن السلو يغلب النسيان والذهول وورود الواردات وانشغال القلب فكأن العبد ليس له كسب إلا في الصبر عند اللحظة الأولى، وهي التي يتميز فيها الرجال، ويشرف فيها الأحوال، فمن وقعت به مصيبة فلا يظن أنه سوف يبقى في هذه المصيبة، قبل أن ينجلي ذلك الهول الذي ولف عليه عند حدوثها، وذلك الكرب الذي ألم به وقت نزولها، هذا لا يكون أبداً، فإن المحنة مثل الضيف يغادر المنزل فيختفي شخصه شيئاً فشيئاً إلى أن يغيب، فمن لطف الله وكرمه سبحانه أن وطن النفوس على التعامل مع الشدائد ولو بشيء من المشقة والتعايش معها ولو بكثير من العنت، لأن المصيبة ما حلت لتقضي على العبد مثلما يقضي عليه الموت، وإنما نزلت تمحيصاً واختباراً وتهذيباً وتصفية وكفارة وتأديباً.

القاعدة الثالثة: أنه لولا الشدائد ما عرفت قيمة النعم ولا ذوق الراحة، وطعم العافية، فإن أحلى وأغلى ما تكون النعمة بعدما يصاب

العبد بشدة، ولو لم يصب بهذه الشدة لما شعر بما هو فيه من النعيم، ولقضى عليه الملل والسأم والضجر، وذهل عما عنده من الخير، وغفل عما لديه من النعم، ولكنه يوم يصدم بمحنة يستفيق فيذكر أيام الراحة وساعات السعود، فيقدرها حق قدرها، ويعض عليها بالنواجذ، ويحدث لها شكراً، ويقيدها بالطاعة، وهذا لمن عرف سنن ربه في المصائب.

ولو أن العبد لم تمر به الشدائد لرأيت عيشه مشوباً بالقلق منغصاً بالهموم، لأنه في رتابة دائمة مملة، وفي هيئة واحدة ثقيلة، فالتبدل من حال إلى حال يعقب لذة وفرحة ونشوة لا يجدها إلا صاحب المحنة، يقول أبو تمام:

والحادثات وإن أصابك بؤسها فهو الذي أنباك كيف نعيمها

فالصحيح لا يعرف قيمة الصحة حتى يصاب، والمطلق الحر في الأرض لا يقدر الحرية حتى يسجن، مثلما أن الشبعان لا يجد للطعام مساغاً حتى يجوع، وكذلك الريان لايحس بالحاجة إلى الماء حتى يظمأ، والله المستعان.

القاعدة الرابعة: أن مما يخفف على المصاب أن كل يوم يمر به يلقي عن كاهله بعض هذه المحنة ويقربه من الفرج، لأن زمن المحنة محدود بزمن مؤقت لأجلٍ مسمى فكلما مر بالمصاب ساعة فقد سقط عنه تبعة لأنه في طريقه إلى اليسر، فلا يتطاول المنكوب الزمن، فإن الفلك يدور لصالحه، وعقارب الساعة تعلن دنو فرجه، والليل لا بقاء له مع النهار، وقد ذكروا أن يحيى بن خالد البرمكي كتب لهارون

الرشيد من السجن: اعلم أن كل ساعة تمر تأخذ بحقها من عذابي وبحقها من نعيمك حتى نلقى الله عز وجل أنا وأنت. وهذا كلام شريف يدل على حصافة العقل، فصاحب المصيبة كلما غربت عليه شمس يوم فعليه أن يفرح لأنه ذهب بجزء من الألم والعذاب، وقد قال عمارة بن عقيل:

ترى كل يوم مر من سوء حالنا يمر بيوم من نعيمك يسلب

القاعدة الخامسة: أن لله الخيار فيما حدث، وله سبحانه الحكمة المطلقة فيما حل، فإن كل ما قدر على المسلم من خير وشر فهو خير له حتى ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن ذلك يعم ما قدره الله على العباد من المعاصي بشرط التوبة والندم والاستغفار والانكسار، فما دام أن كل ما يصيب العبد خير له فكيف يكره العبد الخير ويفر من المصلحة، وليعلم أنه ليس كل محنة تصيبه سوف يطلع على سر الخير فيها، ونكتة المصلحة، لأن هذا ليس من شأنه، إنما هذا من شأن اللطيف الخبير، وعليه القبول والتسليم، فليس الخير هو الذي يظنه العبد دائماً خيراً، وليس الشر هو الذي يتوهمه العبد شرًّا، ولو كان ذلك كذلك لكان العبد عالماً بالغيب، كاشفا لأسرار القدر، عارفاً بمواقع القضاء، وليس هذا إلا لله الواحد الأحد ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

القاعدة السادسة: أنه إذا اشتد الكرب وبلغ غايته ووصل ذروته، جاء الفرج، سنة ماضية وحكمة قاضية، وكانوا يقولون: اشتدي أزمة تنفرجي.

والعرب تقول: إذا استوفى مقداره واكتمل آذن بالرحيل، لتنقلب الحال كما سبق في القاعدة الأولى، فعندما يرى المصاب ازدحام الكرب، وتكاثف الظلمة وشدة المحنة فسوف يفاجأ بزوالها لا محالة، لأن الله ما ابتلى بالمحنة ليديمها، وكل شيء يقبل التحول والزوال إلا الواحد المعبود بحق سبحانه، ومن استقرأ التاريخ ودرس العبر وطالع المثلات علم أن اكتمال الشيء نقصانه، ونهايته خاتمته، سواء كان نعيما أو شقاء كما قال الشاعر:

لكل شيء إذا ما تم نقصان

وقول الآخر:

إذا تم شيء بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم

وكانوا يقولون: إذا أراد الله إهلاك نملة خلق لها ريشا فإذا طارت هلكت، لأن طيران النمل غاية الكمال، فإذا وصلت إلى هذه الغاية بدت سنة الله في كل من استوفى حقه بتغير حاله، وتبدل مقامه، لتبقى السنة الإلهية في الكون محكمة ثابتة دائماً، فإذا اشتد ظلام الليل عقبه الفجر، وإذا اكتمل البدر أصابه النقص وإذا تم ضوء الشمس في الظهيرة أدركها الزوال، وكذلك المصيبة إذا تعاظمت وتفاقمت فهي بشرى بزوالها وارتحالها.

القاعدة السابعة: أن العبد إذا أصابه اليأس وانقطعت به السبل، وأظلمت في وجهه الحيل، جاء الفرج ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ لأن العبد إذا انقطع أمله في الناس وتكاثف ليل اليأس في قلبه، انبعثت فطرة الله في قلبه بالرجاء في الله

ضرورة، والرجوع إليه حتماً، والانطراح على عتبات ربوبيته، وسجود القلب في مصلى عبوديته ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ حينها يفرد العبد ربه وإلهه بالرجاء والسؤال والأمل.

وهذا سر التوحيد، فيغيثه الله بالفرج، ويتداركه بالعون، ولذلك قال الشاعر:

فأقرب ما يكون المرء من فرج إذا يئسا

لأن سنة الله الماضية أن لا يخيب من رجاه، ولا يرد من دعاه، ولكن من أشرك معه في المسألة والتوجه لم يحصل على مطلوبه ولم ينل مرغوبه، فإذا أخفق العبد في طلبه من الناس، وأحبط من جهتهم وجد الرغبة في ربه، وأفرد المسألة لمولاه، وعند هذه اللحظة يستجيب الأحد الصمد، فيكشف السوء عن عبده ويزيح الغمة عنه، ويبدله مكان العسر يسرا، ومكان الكرب فرجا، ومكان الغم سرورا، فإذا بدأت تيأس من تحقق أمر، ومن حصول مطلوب فاعلم أنه قد دنا الفرج وحصل اليسر، ونزل الغوث، والله أعلم.

الوعظ قضية كبرى

بعضهم يهوّن من شأن الوعظ ويرى أن الوعّاظ قصّاص لا شأن لهم، وهذا خطأ، فإن الوعظ من سنن المرسلين ومن مهماته الكبرى ﷺ وعظ الناس ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ وكان في السلف من يعظ ولا يفتي ومنهم من يفتي ولا يعظ وكل له نفع ولم

يهوّن أحدهم من شأن الآخر ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ ورأيت للوعظ نفعاً عظيماً يفوق الوصف، فهل تاب من تاب إلا بالوعظ؟ ومن الناس من لو عرضت عليه مائة فتوى لم يلتفت لها فإذا وعظته انزجر ورجع. وكان في الأئمة وعّاظ أعادوا الناس إلى ربهم وأصلح الله بهم ما لم يصلح بكثير من العلماء مثل ابن سمعون وأبي معاذ الرازي وابن الجوزي، فمن فتح عليه باب الوعظ فليلزمه ولا يلتفت لكلام مثبّط وعليه بصحة الحديث وترك الغرائب والشواذ وإصلاح العمل والتوسط بين الخوف والرجاء وعدم إملال الناس.

العزلة النافعة

في العزلة.. البعد عن مواطن الرياء وهو من محبطات الأعمال فإن من جلس وحده لا يجد من يرائي له أما من خالط الناس فإن نفسه تدعوه إلى التصنع وإظهار الفضيلة فإن الإنسان من طبيعته إظهار الحسن من نفسه وستر السيء، والمتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور، فمع الخلطة تجد العبد يزيّن ألفاظه فإن كان صاحب علم أحب التصدر في الغالب واستأثر بالمجلس وأحب أن يستنار بفهمه وأن ينوه بعلمه وإن كان ذا عبادة أظهر الزهد في الدنيا وتمتم بالتسبيح وتوجع وتفجع عند سماع أخبار العصاة وربما لم يكن بتلك المنزلة من التقوى.

وفي العزلة.. السلامة من الكذب فإن النفس أمّارة بالسوء وحب التزيّد في الحديث عادة وجلب الانتباه بغرائب الحكايات وعجائب المنقولات محبب إلى النفوس فلا يزال الشيطان يؤزّ العبد حتى يلمح

القصة ويجنّي الحديث ويذيّل الخبر في الغالب وهذا كذب والعياذ بالله.

وفي العزلة.. الأمان من التهديد والوعيد الذي ينقله الغاوون فإنهم يحبون الأراجيف وينشطون للشائعات ويرتاحون لبث الأخبار المخيفة من قتل وحبس وحروب ودمار وجوع وتخطيط لكارثة وتدبير لحادثة حتى يبقى قلب السامع في مزعجات وتعيش نفسه في خيالات ولو كان وحده لرضي بموعود الله من الكفاية وتفويض الأمر إليه والتوكل عليه والقرب منه.

وفي العزلة.. السلامة من صلف المتكبرين وإعراض المتجبرين وزهو المختالين، فإن من الناس من يستهين بمن خالطه أو صادقه بغلظته وفظاظاته وزهوه وعتوه وكبره وفخره وخيلائه ودعاويه فإن سكتَّ له أذلّك وإن عارضته عاداك وجافاك وقلاك فإيّاك إيّاك.

وفي العزلة.. النجاة من عيون الحاسدين وأبصار الكائدين فإن في حدق العيون رصاص يقتل، وسهام تجرح، وقذائف تدمر، فلله كم من نعمة سلبت بعين نظرت وكم من موهبة أهدرت بلحظة عين أرسلت والسلامة لا يعدلها شيء ومن تعرض للعيون رشقته ومزقته فكم من حاسد ملأ قلبه الطمع وخيّم على روحه الجشع يفتك بنظراته ويقتل بلحظاته.

وفي العزلة.. تذكر الذنوب والتفكر في العيوب والاشتغال بنقص النفس عن نقص الناس فإن من اعتزل ظهرت له أخطاؤه لأنه لا يرى أخطاء الآخرين وبدت له عيوبه لأنه شغل بها عن عيوب العالمين

فتجده بين ندم على ما فات يستفرغ دموع عيونه وآهات قلبه وبين عمار لوقته في الطاعة وتدبير لمستقبله واستعداد لرحيله وتهيؤ لانتقاله.

وفي العزلة.. إسقاط الحقوق عن النفس والواجبات عن الشخص فإن الناس لا يعذرون لأنك إن زرت فلاناً وتركت علاناً عتب عليك ونفر منك ولكن لو عودت الجميع ترك فضول الزيارة إلا في الواجبات الشرعية عذرك الجميع وعفواً عنك.

الحشو في التأليف

إلى متى هذه الرسائل المكررة في الماجستير والدكتوراه، التي امتلأت بها الرفوف، وأشغل بها طلبة العلم، ولو صرف الطالب جهده في فهم كتاب من كتب سلفنا وتلخيصه ونوقش لرأيت العجب العجاب بدل هذه الجزئيات، ونفخ المجلدات، والتشبع بهذه المكرّرات، وقل لي بربك لو كلّف طالب الدكتوراه بدراسة وفهم تفسير ابن كثير، أو المغني، مدة أربع سنوات ليلاً ونهاراً، أليس أنفع له من تحقيق تأريخ أصبهان، والعالي والنازل، والمؤتلف والمختلف، أو البحث في مسألة المدبّج والمضطرب، والرواية الشاذة، فليت طلبة العلم اتجهوا لأمهات الكتب دراسة وفهماً وتدبراً، كنت رأيت علماء فقهاء، أما تبديد الجهد في الجزئيات، وإتخام المكتبة برسائل لا يقرؤها أحد ولا يدري بها بشر، فهذا هو تمزيق الجهد وتضييع العمر، والله الموفق.